الفصل الخامس عشر

رجل أحيا الله به أمة

الشكر العملي للنعمة

نحتاج دائما أن نستدل بالقول والعمل على شكرنا لله سبحانه وتعالى على النعم التي أنعم بها علينا. أما الشكر بالقول فيكون من خلال الأذكار، في حين يتجلى الشكر العملي في صورة مناسك دينية مثل سجدة الشكر أو زيادة الطاعات، وأيضا من خلال الحفاظ على تلك النعم وعدم التفريط فيها والاستشعار بقيمتها. ويمتد التنفيذ العملي للشكر إلى كل نعمة نشعر بها في حياتنا. وكلما زاد تفاعل القراء مع الشكر العملي للنعمة ومع الخطوات السابقة واللاحقة، المذكورة في نهاية كل فصل من الفصول العشرين، كلما خطت الأمة خطوة على طريق النهضة وكلما اقترب الانتصار المرتقب.

سطوع النجم

تمكن صلاح الدين من إشعال الجبهة الإسلامية في الشام على الصليبيين. وأصبحت الضربات التي تلقاها الصليبيون من العنف حتى إنهم كانوا يحتارون أين تكون ضربته القادمة، هل يضرب صلاح الدين أنطاكيا في الشمال؟ أم يزحف إلى بيت المقدس في الجنوب؟ أم يهجم على بنياس في القلب؟ أم يأتي إلى طرابلس أو بيروت من البحر أو البر؟ لقد أشعل صلاح الدين بالفعل جبهة المواجهة مع الصليبيين حتى إن القارئ بدأ يتنفس الصعداء بعد الصدمات التي تلقاها إثر

سقوط بيت المقدس، وإقامة الإمارات الصليبية الواحدة تلو الأخرى، وخيانة شاور، وعدم مقدرة الأمة على تحقيق الانتصار. وتبدل الحال لتعود الانتصارات ويزداد الاستشعار بتسخير الله عز وجل لصلاح الدين الأيوبي في خوض كل تلك المعارك.

اليد العليا

شهد عام ٥٧٦ هجرية طلب الصليبيين عقد معاهدة وهدنة مع صلاح الدين الأيوبي وبدأت المفاوضات بينه وبين بلدوين الرابع أمير بيت المقدس وريموند أمير طرابلس. والجدير بالذكر أن جلوس صلاح الدين على مائدة المفاوضات كان من منطلق القوة التي بدت للعدو قبل الصديق. ولذلك، لم يجد صلاح الدين غضاضة في العمل بالآية الكريمة:

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال:٦١].

ودائما ما يكون المفاوض المنتصر أقوى من الطرف الآخر المهزوم. وللأسف، فإنا نغفل هذا الواقع فتجدنا نسير في خطوات التفاوض مع الصهاينة وغيرهم من أعداء الإسلام ونحن الطرف الأضعف، وذلك نتيجة لعدم استفادتنا من التاريخ عموما ومن أخطائنا السابقة بصفة خاصة. ولم يحدث على مر التاريخ أن تفاوض طرفان إلا واضطر الضعيف منهم إلى تقديم تنازلات من حقوقه. ولذلك رحب صلاح الدين بالمفاوضات التي يجريها طالما كانت له اليد العليا بفضل الله تعالى وتوفيقه عز وجل له في تحقيق انتصارات مسبقة على مرحلة التفاوض. فتم ذلك لصلاح الدين الذي تمكن من إملاء شروطه على المفاوضين من الجانب الصليبي. وكان الشرط الأقوى الذي فرضه صلاح الدين على خصومه من خلال المعاهدة عدم اعتداء مشترك لمدة أربع سنوات هو عدم امتداد أيدي المعاهدين من الصليبيين بالمساعدة لأمراء صليبيين آخرين يدخل صلاح الدين معهم في نزاع عسكري.

وبهذا استطاع صلاح الدين إيقاع الفتنة بين الأمراء الصليبيين القادمين إلى الشرق، بعضهم ضد البعض الآخر. وكان ذلك معناه على أرض الواقع أن يضرب صلاح الدين أنطاكيا وقتما شاء دون تدخل من أميري بيت المقدس وطرابلس. وهكذا يكون صلاح الدين قد ضرب مثالا للمهارة السياسية التي يحتاج إليها الساسة المسلمون الحاليون. وتلك المهارة السياسية إنما تبرز على أساس التفاوض باليد العليا، وليس بمبدأ مبادلة السلام باسترجاع أرض إسلامية في الأصل! ...

حلب ... والسير على الأشواك

بقدر ما كان صلاح الدين الأيوبي راضيا عن فكرة التفاوض مع الصليبيين وهو في موقف القوة، بقدر ما بات سعيدا بما أثمرت به تلك المفاوضات حتى يعود للتفرغ لما تبقى من شأن داخلي على طريق الوحدة الإسلامية المرجوة. وكانت إمارتي حلب والموصل تمثلان الشغل الشاغل لصلاح الدين لما تتمتعان به من قدرات عسكرية تضيف إلى طاقته الحربية قدراً كبيراً من زيادة التفوق على الصليبيين.

في ذلك الوقت، كان الصالح إسماعيل بن نور الدين الوالي على حلب، ولكن سعد الدين كمشتكين كان الوصي القهري عليه إذ أن الصالح إسماعيل لم يكن قد تخطى الحادية عشرة من عمره عند وفاة والده. أما الموصل فكانت تحت إمرة سيف الدين غازي ابن عم الصالح إسماعيل. وبالإضافة إلى هاتين الإمارتين، كانت هناك إمارة ثالثة يسعى صلاح الدين لضمها إليه وهى منطقة سنجار التي كان يحكمها عماد الدين ابن العم الثالث بعد الصالح إسماعيل وسيف الدين. وكان صلاح الدين قد فاوض الصالح إسماعيل سنة ٥٧٢ هجرية ووقع معه معاهدة انسحب صلاح الدين على أثرها من الشام. وظل صلاح الدين على احترامه لتلك المعاهدة فلم يقترب من حلب أو الموصل. ولكن الأخبار وصلته أن أمير الموصل شرع في تكوين حلف مع أمير إمارة أنطاكيا وأمراء الطائفة الإسماعيلية للقضاء على

صلاح الدين. وعلى الجانب الآخر، وقعت خلافات شديدة في حلب اغتيل على أثرها سعد الدين كمشتكين على يد الصالح إسماعيل تحت تأثير البطانة الفاسدة التي كانت تحيط به. ويرجع أمر اغتيال سعد الدين إلى استئثاره بالنفوذ والثروات داخل الإمارة رغماً عن الصالح إسماعيل الذي تخلص منه ليصبح أمير حلب. وتوالت الأحداث بعد ذلك سريعا حتى اغتيل الصالح إسماعيل بواسطة الطائفة الإسماعيلية. وعند التساؤل عن سبب اغتيال الصالح إسماعيل نجد نفس الإجابة وراء مقتل أحد أمراء بني أرطق، وعماد الدين زنكي، وسعد الدين كمشتكين، ألا وهى المصالح الشخصية وحب الدنيا.

وبناء على توالى الأحداث بصورة سلبية كما سبق إيضاحه، أصبح من الضروري أن يتدخل صلاح الدين سريعا خوفا من سقوط حلب في يد سيف الدين غازي الذي يصر على رفضه للتحالف مع صلاح الدين في حربه ضد الصليبيين. وبالتالي، تحرك صلاح الدين إلى حلب، ولكن سيف الدين غازي كان قد سبقه إليها ووضع يده عليها. وبدأ صلاح الدين يفاوض سيف الدين بشأن موقف كل من حلب والموصل. وأثناء جريان تلك المفاوضات تآمر سيف الدين على قتل صلاح الدين. وبذلك يتضح أن الأمة الإسلامية قد ابتليت بكم من الأمراء والأشخاص الذين يتقلدون المناصب لمنفعتهم الشخصية وليس كمسئولية لصالح الرعية.

وقد شاء الله جل علاه أن ينجو صلاح الدين الأيوبي من محاولة الاغتيال للمرة الثانية فردد نفس الجملة التي قالها في المرة الأولى: "لقد أنقذني الله تبارك وتعالى لأمر كان مفعولا سأكون فيه سببا وفعلا". وبذلك تكون النجاة من الاغتيال مؤشرا لصلاح الدين عن رضا الله سبحانه وتعالى عن الطريق الذي سار فيه، فأحكم الحصار على حلب. ولكن أثناء الأعمال الحربية المصاحبة لاستمرار ذلك الحصار فقد صلاح الدين أصغر إخوته الملقب تاج الملوك بوري. ويتضح حجم المعاناة التي مر بها صلاح الدين وهو يحضر احتضار أخيه الأصغر الذي جرح في إحدى

المعارك. ولكن تلك المعاناة وغيرها تهون في سبيل فتح مدينة إسلامية تنضم إلى الوحدة وتزيد من قوتها.

﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران:٧٣].

وبعد طول انتظار، سقطت حلب بعد أن استخدم صلاح الدين أقوى أنواع المنجنيق في ذلك الوقت لفتح أقدم مدن الشام قاطبة. وفى واقع الأمر، لقد أسست حلب قبل ميلاد السيد المسيح، ومنذ نشأتها كانت ملتقى التجار. ويكفى أن حلب قد حكمها رجال عُرف عنهم تقوى الله تبارك وتعالى وجاهدوا في سبيله مثل عماد الدين زنكي ومن بعده ابنه نور الدين محمود. وبسقوط حلب تكون الشام كلها قد دانت لصلاح الدين الأيوبي. ولذلك فلقد شهدت تلك المدينة احتفالات هائلة عشية قدوم صلاح الدين إليها.

وما إن حط صلاح الدين أوائل خطاه في حلب حتى ناجى ربه متضرعا، حامدا، شاكرا، ناسبا الفضل إليه سبحانه وتعالى، ومتبتلا إليه على النحو التالي: "ما كنت ربى أطمع في يوم توهب لي فيه مدينة حلب خلفا لعماد الدين زنكي ونور الدين محمود". ثم تلا الآية التالية:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران].

وما أطيب أن يشكر كل منا الله جل علاه على نعمائه التي من بها علينا، وأن يرجع الفضل إلى صاحب الفضل، تماما كما فعل صلاح الدين الأيوبي عندما سجد لله تبارك وتعالى أمام الجموع المحتشدة. ولا أقل من أن يفعل صلاح الدين ذلك بعد أن خصه الله العزيز الرحيم بسلطان الشام ومصر دونا عمن سبقوه من القادة المخلصين أمثال عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، ونجم الدين أيوب، وأسد الدين شيركوه!

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٢٣].

لقد كان من الطبيعي بالنسبة لرجل طيب المنشأ مثل صلاح الدين أن يستشعر لحظة عرفان بالجميل إبان دخوله حلب بعد أن خضعت له، إذ أسرع ليزور قبر نور الدين محمود مترحما على ذلك العبد الربانى الذي نشأ على يديه. وكانت هناك مفاجأة بانتظار صلاح الدين حيث وجد شيخاً مسناً غارقاً في البكاء على مقربة من القبر. وسمعه صلاح الدين وهو يقول: "من لنا بعدك يا نور الدين؟ المكوث والضرائب أخذت ما أمامنا وما خلفنا، وأصبح الشيخ الضعيف الفقير مثلى القبر أولى به من أن يعيش ذليلا، ليس هناك عادلا بعدك يا نور الدين". ورغم حالة النشوة التي يشعر بها صلاح الدين نتيجة لدخوله حلب فاتحا لها، إلا أنه أجهش بالبكاء عند سماعه كلام الشيخ أمام قبر نور الدين محمود. وفورا، أمر صلاح الدين بإلغاء المكوث والضرائب التي كانت قد فرضت في عهد الصالح إسماعيل، ورد الأمر إلى ما كان عليه في عهد نور الدين محمود، وأخذ ذلك الرجل وأعطاه من بيت مال المسلمين.

ومن خلال هذه الواقعة يتضح للقارئ مدى وفاء صلاح الدين لمربيه ومعلمه وقائده نور الدين محمود، وتتضح أيضا مدى كذب الادعاءات التي كانت قد أشيعت على تنكر صلاح الدين لقائده ومعلمه نور الدين أثناء حياة الأخير. ومثال آخر من أمثلة وفائه لنور الدين محمود وهو أمره بنقل المنبر الذي كان نور الدين محمود أمر بإنشائه من حلب إلى دمشق انتظارا لوضعه بالمسجد الأقصى بعد تحريره، وفقا لرغبة نور الدين محمود. وبهذا الفكر وهذا السلوك يكون صلاح الدين متبعا للطريق الذي سار عليه رسول الله ﷺ، والصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح، ومن المعاصرين له أمثال عماد الدين زنكي ، ونور الدين محمود، وأمراء بني أرطق.

بعد فتح صلاح الدين لحلب نودي به سلطانا على الشام ومصر، فتلا الآية التالية أمام وزرائه:

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحزاب].

وهذا مثال آخر من أمثلة تحرى صلاح الدين تقوى ربه إذ يبوء لله تعالى بنعمته عليه بأن جعله من أعظم ملوك الأرض وقتها. ولكم نحتاج إلى مثل هذا الاعتراف بنعم الله عز وجل علينا، خاصة أن هذه هي إحدى صفات عباد الله المخلصين.

وبطبيعة الحال، لم يكن صلاح الدين الأيوبي وحده في انتهاج المنهج الرباني واتخاذ السلوك القويم طريقا، بل كانت حوله مجموعة من المتقين مثل القاضي الفاضل. وكان ذلك الرجل صاحب إخلاص نادر، وخطابة عالم، مما جعله يذهب إلى ميدان المعركة في كثير من المواقع ليتلو على الجند سورتي الأنفال والتوبة، ويشحذ هممهم، ابتغاء مرضاة الله عز وجل.

اللهم أعز الإسلام وانصر المسلمين وارفع راية الحق واليقين

وحتى ذلك الوقت، لم يكن صلاح الدين قد ضم إمارة الموصل لسلطته بعد. وكان سيف الدين غازي قد رفض في مرات عديدة مساعدة صلاح الدين في حربه ضد الصليبيين. ولذلك، لم يجد صلاح الدين بدا من مواجهة سيف الدين غازي عسكريا ودارت بينهما معارك عديدة هزم فيها سيف الدين غازي، ولكن صلاح الدين لم يستطع دخول الموصل نظرا لمناعتها. وللأسف نعلم كلنا ما آل إليه حال مدينة "الموصل" في شمال العراق في وقتنا هذا من خضوع لاحتلال غربي بغيض. اللهم حرر "الموصل" وكافة أراضي الإسلام يا رحمن يا رحيم.

وصحيح أن صلاح الدين الأيوبي كانت بينه وبين الصليبيين معاهدة عدم اعتداء، ولكن السفاح أرناط هاجم قوافل الحجيج. وقد حذره بلدوين الرابع تحذيرا شديدا من العودة إلى تلك الأفعال الشيطانية. ولكن إمعانا في سلوكه الشرير، زحف أرناط بجيشه حتى وصل إلى ميناء مصري اسمه "عيذاب" وقتل من أهله ما قتل، ثم وصل إلى ميناء "جدة" قاصدا مكة والمدينة. وعندما أراد العرب تخويفه من صلاح الدين، قال لهم: "دعوا محمدا يخلصكم في هذه اللحظة من شروري"، وهى نفس المقولة التي يرددها الصهاينة في وقتنا الحالي، زاعمين أن أمة محمد ﷺ تعجز أن تنجب رجالا يخرجوهم من الأراضي التي احتلوها. وعندما وصلت أخبار الجرائم الجديدة التي اقترفها أرناط، صاح صلاح الدين: "لقد بلغ هذا السفاح أرناط مبلغه، أيقتل الآمنين ويهتك ستر الحرائر؟ أيقتل الأطفال ويستولى على أموال المسلمين؟ أيهدد الحرم وقبر رسول الله ﷺ؟ هيهات هيهات وأنا حي، فوالله لئن نلت منه لا يقتله أحد سواي!". لقد عبر صلاح الدين عن طموحه لإعزاز الإسلام والنيل من كل من تسول له نفسه التعرض للمسلمين. وبدأ صلاح الدين يوجه اهتمامات الأمة كلها للهدف المرجو وهو استرداد بيت المقدس، واستعادة أرض فلسطين، وتحرير التراب الإسلامي من نجس الصليبيين. وتروى الأحداث التالية أن الله سبحانه وتعالى أبر قسم صلاح الدين، فهل لنا برجل مثل صلاح الدين يبعث الهمة في الأمة من جديد؟!

الميزان

وعن قيمة الرجال يحدثنا رسول الله ﷺ قائلا في الحديث الذي يرويه عبد الله ابن عمرو بن العاص: **"وزن ثلاثة من أمتي البارحة"**، وهى رؤية رآها الرسول ﷺ وتعنى أن إيمان ثلاثة أشخاص من أمة النبي وضع في كفة بينما وضع إيمان الأمة كلها في كفة أخرى وتساوت الكفتان! وفى حديث آخر، يقول رسول الله ﷺ:

"يؤتى بالرجل السمين العظيم يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة". وفى الواقع، فإن القلب السليم هو الذي يزن عند الله يوم القيامة. ولبيان القيمة الفعلية لصلاح القلب وبعده عن الفساد، يقول رسول الله ﷺ: **"يقف الرجلان في صف واحد، القيام والركوع والسجود واحد، وعندما يختتمان الصلاة، الفارق في الصلاة بينهما ما بين السماء والأرض"**. والفارق هنا يكمن في القلب، فيصل أجر أحدهما للسماء، بينما يبقى أجر الآخر بسيطا.

ويؤكد رسول الله ﷺ ذلك بقوله: **"ما سبقكم أبو بكر بصلاة ولا صيام، ولكن سبقكم بشيء وقر في قلبه"**. وعند التساؤل عن سبب تميز أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن بقية الأمة نذكر موقفه في حروب الردة، فرغم أن السواد الأعظم من الصحابة الكرام نصحوه بعدم مقاتلة رافضي دفع الجزية إلا أنه قال مقولته الشهيرة: "والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه!". وفى تلك اللحظة المجيدة من تاريخ الأمة استطاع أبو بكر الصديق إعادة الاتزان للأمة.

والحال أشبه بذلك عندما وقف الإمام أحمد بن حنبل وقفته الحاسمة من ادعاء خلق القرآن إذ أنه واجه بمفرده كل من خاض في ذلك الأمر وتعرض للاضطهاد والحبس في السجن، ولكنه في النهاية نال نصر الله العزيز الحكيم.

ولتأكيد نفس المعنى، نعود بالذاكرة إلى واقعة خاصة بأحد الصحابة الكرام وهو عبد الله بن مسعود. ففي ذات مرة كان هذا الصحابي الجليل يتسلق نخلة بين يدي رسول الله ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم. وكان عبد الله نحيف الجسم ودقيق الساقين. وقبل أن يتسلق النخلة، رفع عبد الله ثوبه فظهرت دقة ساقيه مما أثار ضحك بعض الحاضرين. وفى تلك اللحظة أراد رسول الله ﷺ أن يؤكد على عدم أهمية الشكل عند الله تبارك وتعالى فهو يأخذ بالقلب والجوهر وليس بالصورة والمظهر، فقال: **"فوالله إنها أثقل في ميزان الله يوم القيامة من جبل أحد"**.

وهناك أيضا قصة عقبة بن غزران وهو سابع سبعة في الإسلام. في ذات يوم كان هذا الصحابي في حمص، فلاحظ أن المحيطين به معجبون بهيئته فقال لهم: "إياكم أن يغركم منظري، فلقد أكلت مع رسول الله ﷺ ورق الشجر حتى تشققت شفتاي، وقد قسمنا الإزار الواحد بيننا، أخذ هو نصفه وأخذت نصفه الآخر!".

وفى الواقع، هناك عدد كبير من الرجال المخلصين الذين تمكنوا من إعادة الاتزان للأمة على فترات متباعدة وكلما لزم الأمر. وبالتأكيد، فإن صلاح الدين الأيوبي يعد من هؤلاء الرجال إذ كان صلاحه الحقيقي يكمن في صلاح قلبه وعلاقته بالله سبحانه وتعالى.

إذن، فإن ارتباط العباد بربهم من خلال الإقبال على الطاعات والبعد عن المعاصي هو الذي يزيد من وزن الأمة. فهل لنا برجل يزن هذه الأمة من جديد بهذا المقدار من الأوزان؟! ولذلك، نحن في أمس الحاجة إلى أن نلتفت لحال علاقة قلوبنا بالله جل علاه.

وبعد الحديث عن الإيمان الذي وقر في القلب وصدقه العمل، فعلينا أن نتفقد أحوال قلوبنا وعلاقتها بالله تبارك وتعالى. فهل كل منا راض عن مدى قربه من الله الواحد الأحد؟ أم بالطبع هناك رغبة في زيادة التقرب من الله عن طريق مضاعفة الطاعات والبعد عن المعاصي؟ فلتكن إجاباتنا صادقة حتى نضع أنفسنا على بداية الطريق الصحيح للفوز بالجنة والنجاة من النار.

***